﴿المحاضرة - 05 - الخامسة﴾

الأدب الجزائري في عهد الدولة الفاطمية

عناصر الدرس

1- تاريخ الدولة الفاطمية
2- الفاطميون في الجزائر
3- النشاط الثقافي الفاطمي في بلاد المغرب العربي
4- صورة الحياة الأدبية الجزائرية في ظل الدولة الفاطمية
5- أعلام أدبية جزائرية في الدولة الفاطمية، ومختارات من أدبهم
6- الخصائص الفنية والشكلية للأدب الجزائري الفاطمي

1- تاريخ الدولة الفاطمية:

الفاطميون العبيديون أسرة حكمت في التاريخ ما يقرب من ثلاثة قرون، (298 - 567هـ، 911 - 1171م). نشأت في شمال إفريقيا وامتد حكمها إلى مصر وبعض بلاد الشام، وتنتسب إلى مؤسسها أبي عبيد الله الشيعي الخليفة الفاطمي المؤسس.

بعث أئمة الشيعة العلويون دعاتهم إلى شمالي إفريقيا لنشر دعوتهم بعيدًا عن مركز الدولة العباسية. واستطاع أبو عبيد الله الحسين الشيعي أن يلتقي في أحد مواسم الحج بحُجاج من قبيلة كتامة البربرية، وأقنعهم بتبني الدعوة الفاطمية، وسافر معهم إلى إفريقيا (تونس)، فوجد البلاد مهيأة لنشر دعوته بسبب كراهية أهلها للأغالبة والعباسيين. فكوَّنَ قوة عسكرية من الساخطين، فهزم بهم الأغالبة وأنهى حكمهم سنة 296هـ، 909م، واستدعى أحد أئمة الشيعة ـ سعيد بن الحسين ـ ولقبه عبيد الله المهدي ونادى به خليفة، ليؤسس بذلك بداية الدولة الفاطمية المغربية.

ذكر المؤرخون كلامًا كثيرًا عن عبيد الله. وكان أول ما قام به بناء عاصمة جديدة تسمى المهدية، ووسع رقعة بلاده بالسيف، وبقوة الأسطول الذي ورثه عن الأغالبة. ولجأ إلى تدعيم مركزه بالفتوحات المبكرة ليصرف الناس عن الصراع الفكري والسياسي داخل الدولة. ويرى بعض المؤرخين أن سبب انتقال عاصمته إلى المهدية بونس ثم إلى القاهرة بمصر هو للخروج من هذا الجو.

بسط الفاطميون سيادتهم على مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي، الذي خلف عبيد الله المهدي، حين استطاع قائده جوهر الصقلي فتح مصر سنة 358هـ، 969م، وأطاح بالدولة الإخشيدية التي شاخت بعد موت كافور وضربها القحط والوباء، وأسس مدينة القاهرة سنة 358هـ، 969م والجامع الأزهر سنة 359 -361هـ، 969 -971م، وقصرًا لسيده المعز الذي انتقل إلى القاهرة سنة 362هـ، 973م، وجعلها عاصمة له، تنافس عاصمة الخلافة العباسية.

وترك أمر المغرب إلى حكم قبيلة صنهاجة البربرية الذين عرفت دولتهم باسم دولة بني زيري نسبة إلى أول ملوكها بلكِّين بن زيري الصنهاجي، وورث الفاطميون ملك الإخشيديين بالشام والحجاز، واستولى على الملك في بغداد قائد تركي يدعى البساسيري وأصبح يدعو من على المنابر للخليفة الفاطمي المستنصر. وبسط الفاطميون نفوذهم على

غربي البحر الأبيض المتوسط ليتحدوا مع الأمويين في الأندلس ضد عدوهم المشترك من عباسيين وروم[1].

2- الفاطميون في الجزائر:

استولى الفاطميون على منطقة الزاب من المغرب الأوسط، واختطوا مدينة المسيلة (المحمدية)، اختطها أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي، سنة (315هـ=926م)، وبناها علي بن حمدون المشهور بابن الأندلسية[2]، وولوه أميرا على الزاب، وجعلوا مدينة المسيلة (عاصمة للزاب).

3- النشاط الثقافي الفاطمي في بلاد المغرب العربي:

كانت جهود الفاطميين حين دخلوا بلاد المغرب موجهة إلى نشر مذهبهم الشيعي، وكسر شوكة خصومهم من أهل السنة، وقد كان أكثر أهل المغرب على مذهب مالك. فأكثروا القتل والفساد طيلة فترة تواجدهم بالمغرب (298-362هـ)، أي ما يقارب 64 سنة هجرية. ولم يَسْلَمْ معارض من بطشهم إلا مَنْ فرّ إلى بلاد المشرق أو الأندلس.. وهكذا فرّ كثير من المثقفين الجزائريين آنذاك إلى الأندلس وأشهرهم عائلة الطبني..

ورغم أنَّ علي بن حمدون بن الأندلسي استطاع أن ينشط الحركة الثقافية، يقرب إليه العلماء والأدباء، ويغدق عليهم بالأموال، وكذلك فعل من بعده ابنه جعفر. فاجتذب القصر الفاطمي في المسيلة شعراء مبرَّزين، أمثال ابن هانئ الأندلسي، الذي ناصر الشيعة، ومدح أمراءها، وهجا خصومها، طمعا في القربى، والجاه، والمال. ومن ناحية أخرى نشط الجدل الديني بين فقهاء المالكية والفاطميين، وأنتجوا نثرا وشعرا لم تكن غايته الصنعة الفنية، وإنما مجرد الإقناع. تجنّب أكثر الجزائريين البلاط الفاطمي، وتحفظوا في مدح الفاطميين، لأن شعراء الدولة الفاطمية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح، وينشرونه بين الناس، وقد ظهر ذلك في شعر ابن هانئ الأندلسي، في مدحه للمعز. ومنه قوله[3]:

ماشـــئت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهـــار
وكأنمـــا أنـــت النبـــي محمـــد وكأنمـــا أنصـــارك الأنصـــار
أنـــت الـــذي كانـــت تبشـــرنا بـــه فـــي كتبهـــا الأحبـــار والأخبـــار

ومنه تشبيه شعرائهم المهدية بمكة المكرّمة، وقصر المهدي بالكعبة؛ في قول بعضهم[1]:

هِـــيَ المهديَّـــةُ الحـــرمُ المـــوَقّى كمـــا بتهامـــة البلـــد الحـــرام
كـــأن مقـــام إبـــراهيم فيـــه ثـــرى قـــدميك إن عـــدم المقـــام
وإن لـــئم الحجـــيج الـــركن أضـــحى لنـــا بعـــراص قصـــركم التشـــام

ومدح الشعراء عبيد الله بالكفر، فاستجازه. وكان فيما مُدِحَ به شعرٌ لمحمَّد البديل، كاتب أبي قضاعة[2]:

حَـــلَّ بِرَقّـــادَةَ المســـيحُ حـــلَّ بهـــا آدمُ ونُـــوحُ
حـــلَّ بهـــا أحمـــدُ المصـــطفى حـــلَّ بهـــا الكـــبشُ والـــذبيحُ
حـــلَّ بهـــا الله ذو المعـــالي وكـــلُّ شـــيءٍ ســـواهُ ريـــحُ

ومما زهّد الأدباء والعلماء غير الشيعيين في الاندماج في الثقافة الفاطمية، منعهم لأولئك من التدريس في المساجد، ومنعهم من نشر العلم، والاجتماع بالطلبة، "فكان من يأخذ عنهم، او يتذاكر معهم، إنما يكون سرّا، وعلى حال خوف وريبة"[3]

4- الحياة الأدبية الجزائرية في ظل الدولة الفاطمية:

مرت الحركة الأدبية الجزائرية في الدولة الفاطمية بمرحلتين متمايزتين: المرحلة الأولى زمن تواجدها في بلاد المغرب العربي، وفي بلاد الزاب. والمرحلة الثانية هجرتها إلى القاهرة واستقرارها فيها، من 362هـ إلى أن سقطت على يد الدولة الأيوبية سنة 567هـ. وقد كان للجزائريين القدامى مشاركة فعّالة في قيام الدولة الفاطمية من الناحيتين العسكرية والثقافية. وقبيلة كتامة التي تأسست الدولة الفاطمية على أكتافها. كانت تقطن الساحل البحري من بونة إلى بجاية، ومن مدنها بلزمة، باغاية، سطيف، قسنطينة، جيجل، القل، سكيكدة وتتقدم إلى حدود جبل أوراس[4].

5- أعلام أدبية جزائرية في الدولة الفاطمية، ومختارات من أدبهم:

- **محمد بن المنيب:** عرفه شاوش محمد بن رمضان تعريفا مقتضبا لا يفي بالغرض، ولا يقطع الظن بأن هذا الشاعر جزائري في أصوله؛ إذ يقول: (لا نعلم عن حياة وآثار هذا الشاعر شيئا سوى أنه كان من جملة الشعراء الذين كانوا في ركاب الخليفة إسماعيل المنصور العبيدي حين حصاره لأبي يزيد بن مخلد الخارجي الذي اعتصم عند انهزامه بجبل كيانة من بلاد كتامة عام 335هـ = 946م). أما صاحب معجم أعلام الجزائر فلم يذكره على الإطلاق في كتابه. ولتوثيق جزائرية هذا الرجل نقول: إنَّ الشاعر ابن المنيب ينتسب إلى قبيلة كيانة، التي اعتصم فيها الثائر مخلد، وكيانة إحدى قبائل كتامة، قال الاصطرخي: وكتامة أوطانها بناحية سطيف. وقال الحميري في تعريف جبل إيكجان: "جبل بين سطيف وقسطنطينة فيه قبائل كتامة، وبه حصن حصين ومعقل منيع.. المعادلة الآن

واضحة؛ فالشاعر ابن المنيب من قبيلة كيانة، وهي بطن من كتامة، التي تسكن الجبال الواقعة بين سطيف وقسنطينة.. وبالتالي فابن المنيب جزائري **الأصل** حسب المعايير التي اعتمدتها؛ لأنه كان يسكن موطن قبيلة كتامة التي كانت إحدى قبائل المغرب الأوسط، أي داخل حدود الجزائر الحالية[1].

قال محمد بن المنيب[2]: وكان من بين الحاضرين لهذا الحفل العظيم الشاعر الجزائري محمد بن المنيب؛ فقال في وصف ذاك المشهد[3]: - مشهد الثائر مخلد بن كيداد[4] في القفص مع قردين-. بعدما قبض عليه المنصور الفاطمي[5].

حـــــل الْـــــبلَاء بمخلـــــد ... وَجَمِيـــــع شـــــيعته النـــــواكر
أمْسَـــــى بِـــــأرْض كياتـــــة ... قـــــد بَـــــان مِنْـــــهُ كـــــل نَـــــاظر
يرنـــــو بِطـــــرف خاشـــــع ... نظـــــر المحاصـــــر للمحاصـــــر
يرنـــــو إِلَـــــى عـــــدد الْحَصَـــــى ... والرمـــــل مـــــن تِلْـــــكَ العســـــاكر
يَـــــا مخلـــــد ابْـــــن ســـــبيكة ... يَـــــا شَـــــرّ بَيـــــت فِـــــي العشـــــائر
ذَقْ مَـــــا جنتـــــه يـــــداك قبـــــل ... مـــــن الْكَبَـــــائِر والصـــــغائر
ذَقْ هـــــول شـــــقك للبطـــــون ... وَمَـــــا ارتكبـــــت مـــــن الجرائـــــر
ياشـــــر مـــــن بكياتـــــة ... وكياتـــــة شَـــــرّ البرابـــــر
انْظَـــــر إِلَـــــى القفـــــص الّـــــذِي ... لَا بُـــــد فِيـــــهِ أَنْـــــت صـــــائر
وَانْظَـــــر إِلَـــــى أيـــــديك فِيـــــهِ ... ومؤنســـــيك وَمـــــن تجـــــاور
قـــــد طَـــــال شـــــوقهما إِلَيْـــــك ... فزرهمـــــا ياشـــــر زائـــــر

---

[4]- مخلد بن كَيْدَاد (000 - 336 هـ = 000 - 947 م) مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزّناتي النكّاري، أبو يزيد: ثائر، من زعماء الإباضية وأئمتهم. بربري الأصل. كان يغلب عليه الزهد والتقشف، ويلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمّين. ولد ونشأ في (قسطيلة) وكانت تابعة لتوزر، ونشأ بتوزر، وخالط النكارية بتشديد الكاف، وهم من الصفرية، وسافر إلى تاهرت فكان معلما للصبيان فيها. وانتقل إلى (تقيوس) . قال ابن خلدون: (ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة 316 فكثر أتباعه) ولما مات المهدي الفاطمي (سنة 322) خرج بناحية جبل (أوراس) وتلقب بشيخ المؤمنين، وقاتلته عساكر القائم بأمر الله (ابن المهدي) صاحب المغرب. وعظم أمره، فزحف على (رقادة) في مئتي ألف مقاتل، وامتلكها، وخضعت له القيروان (سنة 333) وأرسل أحد قواده إلى (سوسة) فاستباحها، وحصر (القائم) في عاصمته (المهدية) وجاع أهلها حتى أكلوا الميتات والدواب. ثم بدأت هزائمه بانتقاض بعض البربر عليه، فرجع إلى القيروان (سنة 334) وغنم أهل المهدية معسكره. وتوالت المعارك، وانتقضت عليه (سوسة) فعاد إلى حصارها. ومات (القائم) وتولى ابنه (المنصور) فأخفى موت أبيه وخرج من المهدية، فالتقى بمخلد على (سوسة) فكانت الحرب سجالا، ثم انهزم مخلد، وقتل من أصحابه عدد كبير. وتعقبه المنصور، في جبال وأوعار ومضايق، وكلما أدركه ثبت له (مخلد) قليلا وانهزم، إلى أن حصر في قلعة (كتامة) واستأمن الذين معه فأمنهم المنصور، ودخل القلعة عنوة وأضرمها نارا، فحمل (مخلد) على أصحاب المنصور حملة منكرة فأفرجوا له وخرج. وأمر المنصور بطلبه، فألفوه جريحا قد حمله ثلاثة من أصحابه. فجاءوا به إلى المنصور، فمات من جراحة بعد أسره بأربعة أيام.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج7، ص.194

[5]- المَنْصُور الفاطِمي (302 - 341 هـ = 914 - 953 م) إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي، أبو الطاهر، المنصور بنصر الله: ثالث خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية بالمغرب. - الزركلي خير الدين، الأعلام، ص322- 323.

• **عبد الله بن سلامة:** (القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلاد)، عبد الله بن سلامة البجائي، أبو محمد، فقيه، شاعر، من أهل بجاية. سكن مصر، وتنقل بين القاهرة والإسكندرية والصعيد والريف. كان معاصرا للعماد الأصفهاني الكاتب (519- 597هـ). ذكره في كتابه: خريدة القصر، وأورد له مقطوعة شعرية.

قال عبد الله بن سلامة:

لـــــي حرمـــــةُ الضّـــــيف لـــــو كُنـــــتم ذوي كـــــرم
وحرمـــــــةُ الجـــــارِ لـــــو كنـــــتم ذوي حســـــبِ
لكـــــنّكم يـــــا بنـــــي اللّخنـــــاءِ لـــــيس لكُـــــم
فضـــــلٌ ولا أنـــــتمُ مـــــن طينـــــة العـــــربِ
كـــــم لا أزالُ علـــــى حـــــالٍ أســـــاءُ بهـــــا
مـــــنكم وأغضـــــي علـــــى الفحْشـــــاء والرّيـــــب
لأتـــــرُكنّ لكـــــم أرضـــــاً بكـــــم عُرِفـــــتْ
فأخبـــــثُ البـــــومِ يـــــأوي أخبـــــثَ الخِـــــرَبِ
ومـــــا مُقـــــامي بـــــأرضٍ تســـــكنون بهـــــا
منّـــــي يطيـــــبُ ولكـــــن حرفـــــة الأدبِ

• **علي بن إسماعيل القلعي المعروف بالطميش:** شاعر وأديب من أهل القلعة ومن بين الجزائريين الوافدين على بلاط السلطان الحافظ العبيدي[1]. ومعاصرا له (467-544هـ). وقد جاءه مهنئا بمناسبة استرداد ملكه من وزيره أحمد بن الأفضل[2] الذي انقلب عليه وحبسه.. إلى أن استرد الحافظ ملكه بعد عام وقضى على ابن الأفضل وعاد الحافظ للحكم فجاءه المهنئون ومنهم القلعي الذي كان مقيما في مصر بهذه القصيدة[3]

ولا بـــــدّ مـــــن عـــــزْمٍ يخيِّـــــلُ أنّنـــــي
قـــــدحْت علـــــى الظلمـــــاء مـــــن نـــــدْزره فجـــــرا
يجـــــوبُ ظلامـــــاً كـــــالظّليم إذا ســـــرى
إذا جـــــنّ جـــــوْن كـــــان بيضـــــته البـــــدرا
وليـــــل صـــــحبتُ السّـــــيفَ يُرعـــــدَ حـــــدّه

---

[1] - الحافِظ العُبَيْدي (467 - 544 هـ = 1074 - 1149 م) عبد المجيد بن المستنصر باللَّه العبيدي، أبو الميمون، الملقب الحافظ لدين الله: من خلفاء الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر. ولد في عسقلان، وتملك الديار المصرية سنة 524 هـ بعد موت الآمر بأحكام الله. واستقام له الأمر زمنا. وكان كثير الفتك بوزرائه وخاصته: استوزر أحمد بن الفضل الجمالي، وساءه منه أن يتصرف بالأمور دونه، فقتله سنة 526 هـ واستوزر أبا الفتح يانسا الحافظيّ، فرأى استبدادا منه في الرأي فسمه، وفوض الأمر إلى ابن له يدعى سليمان، فمات لشهرين من ولايته، وأقام ابنا آخر له اسمه حسن، فارتفعت إليه وشاية به فقتله بالسم، سنة 529 هـ واستوزر أميرا أرمنيا يدعى تاج الدولة بعد ذلك أمور الدولة بنفسه، فلم يول وزارته أحدا إلى أن مات بمصر.

[2] - "ابن الأفضل: (467 - 526 هـ = 1074 - 1131 م. أحمد بن الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي، أبو علي: وزير الحافظ الفاطمي صاحب مصر استوزره سنة 524 هـ . وكان داهية فتغلب على الملك وحجر على الحافظ ورد على المصادرين أموالهم، فحمد له المصريون ذلك. وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وكتب اسمه على السكة، ودعا على المنابر للقائم في آخر الزمان، واستمر إلى أن قتله أحد مماليك الحافظ، بظاهر القاهرة. ومولده بعسقلان".

[3] -

وقـــد شـــاب فيـــه مفـــرِق الصّـــعدةِ الســـمْرا
حملـــتُ بـــه درعـــي وســـيفي وإنّمـــا
حملـــتُ غـــديرَ المـــاء والغُصـــنَ والنّهْـــرا
وأشْـــقر وردُ اللـــون لـــولا انتســـابُه
الـــى البـــرقِ ســـيراً خلتُـــه المســـك والهجـــرا
الـــى أن بـــدا وجـــهَ الصّـــباح كأنّـــه
لحـــافظِ ديـــن الله آيتـــه الكبـــرى
وقـــد كـــان ديـــنُ الله بـــالأمس عابســـاً
لجـــرّاهُ حتـــى لاحَ فـــي وجهـــه بِشـــرا
وكـــان عليّـــاً حـــين كـــان الـــذي طغـــى
معاويـــة والحـــارثيّ لـــه عَمْـــرا

وينسب له أيضا:

تـــأبى الصـــوافن تَحْتَـــهُ رعـــى الكـــلا حَتَّـــى تـــرَاهُ بالـــدماء مخضـــبا
وتعـــاف ورد المَـــاء حَتَّـــى تكتســـي وجناتـــه بِـــدَم الأعـــادي طحلبـــا

وَقَالَ فِي شرِيف وَقيل أَنَّهَا لبَعض الأندلسيين:

ســـمت بِـــابْن فضـــل الدولـــة الرتـــب الّتِـــي تقاصـــر عَنْهَـــا حَاسِـــد أَن تطولـــه
يحـــاول قَـــول الشّـــعْر بالجهـــد دَائِمـــا وتـــأبى لَـــهُ أعراقـــه أَن يَقُولـــه
وَمَـــا فِيـــهِ مـــن سِـــيمَا النَّبِـــي وطبعـــه ســـوى أَن قَـــول الشّـــعْر لَا يَنْبَغِـــي لَـــهُ

وله من قصيدة أخرى تجري مجرى الأولى:

زارَ الحبيـــبُ فلـــم يزُرْنـــي غيهَـــب إنّـــي وقـــد لـــبس الـــذّوائب غيْهَبـــا
وكأنّهـــا الظّلمـــاءُ قـــد جُعِلـــتْ علـــى بحـــر ... مـــن السّـــحائب طحلبـــا
حكمَـــتْ علـــى دمِـــه ســـيوفُ بُروقِـــه أنْ لا يُصـــان وأن يُـــراق ويُســـكَبا
يســـتقبلُ الرّوضـــاتِ مـــاءً جاريـــاً فيعـــودُ درّاً فـــي الغصـــون مركّبـــا

ومنها في المديح:

..... برعْـــي الكـــلا حتـــى تـــراهُ بالـــدّماء مخضّـــبا
وتعـــافُ وِردَ المـــاء حتـــى تشْـــتكي وجناتُـــه بـــدمِ الأعـــادي طَحلُبـــا

من قصيدة منسوبة إليه:

لكـــم وِداً ودمْـــتُم علـــى الجفـــا
ويـــزدادُ حُبـــاً كلّمـــا زدتُـــمُ قِلَـــى
ولـــو كـــان ســـقماً فـــي الهـــوى مـــن رضـــاكُمُ
لمـــا اختـــرتُ عنـــه مـــا بقيـــتُ تـــنقّلا
وزَنْـــتُ ممـــاتي بالبقـــا عنـــد غيـــرِكُم
فألفيـــتُ مـــوتي عنـــدكم لـــيَ أفضَـــلا

6- الخصائص الفنية والشكلية للأدب الجزائري:

✓ كان هذا الأدب شعرا دون النثر، وذلك لاقتران النثر بالكتابة عند السلطان الفاطمي، وما كان الشيعة ليدخلوا ديوانهم سنيا مالكيا، ويتقرب من السلطان، ويعرف أسرارهم.

- ✓ ناصر بعض الشعراء الجزائريين المتشيعين دعوة الفاطميين، في حربها ضد خصومها، مثل محمد بن المنيب الكتامي. ولا غرابة في ذلك، فعن طريق جماعة من قبيلة كتامة الحجاج، دخل عبد الله الصنعاني، الذي مهّد، لأبي عبيد الله الفاطمي.
- ✓ كان شعريا تكسبيا في مجمله ليس إلا.
- ✓ كان شعرا راقيا في مستواه الفني، طويل النفس، مثل شعر ابن قاضي ميلة.
- ✓ وجد بعضه القبول لمستواه العالي، بل والنجاح، وقوبل البعض الآخر بالرفض والفشل.
- ✓ لم يتورع الشاعر الجزائري المظلوم في دار الغربة أن يهجو أصحاب الدار.
- ✓ رحل بعض الشعراء الجزائريين إلى مصر في عهد الفاطميين، طلبا للرزق والتكسب.